العقلُ المُسلم .. مكانته وسماتُه (٢)

أ.د. مَحمود توفيق محمَّـد سَعد[٢]

موقع العقل في الإسلام

لا تكادُ تجدُ كتابًا يتخذُه النَّاسُ مصدرًا لضبط علاقتهم بما يعبدون أو بأنفسِهم أوْ بالحياةِ كلّها كونًا وإنسانًا يجعلُ لِلعقلِ منزلةً عليّةً في كلّ ما يصدُرُ من الإنسان في علاقته الآنفِ ذكرها، كمثل ما أنت واجدُه فِي القرآن الكريم، ويكفيك دليلًا على عظيمِ منزلتِه في الإسلام كتابًا وسنةً أنّه ربطَ التّكليف به.

روى أبو داود في كتاب (الحدود) بسندِه عَنْ عَلِيٍّ بن أبي طالبِ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ».

والعقلُ أداةٌ لأفعالٍ عدّةٍ تمكّنه من الوفاء بتحقيق فريضة حسن العلاقة بخالقِه -عز وجل- وبنفسِه عبدًا لله -عز وجل- وبالحياة كلّها كونًا وإنسانًا.

ومن أبرز هذه الخواصّ والوظائف لهذا العقل (الإدراك، والتبصّر، والاعتبار، والرّشد)

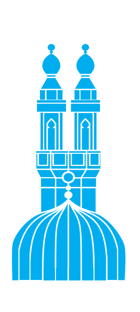
يقول عباس محمود العقاد (ت:١٣٨٢هـ) -رفع اللهُ ذكره في الصّالحين-:

«ومنْ خصَائصِ (العقل) ملكة (الإدراك) الّتي يناط بها الفهم والتصور، وهي على كونِها لازمةً لإدراكِ الوازع الأخلاقيّ وإدراك أسبابِهِ وَعواقِبِهِ تسْتقِلُّ أحيانًا بإدراكِ الأمورِ فيما لَيْسَ لَه علاقةٌ بالأوامرِ والنّواهِي أَوْ بالحسناتِ وَالسّيِّئاتِ.

وَمن خصَائصِ (العقل) أنّه يتأمّل فيما يدركه، ويقلّبُه على وجوهِهِ، ويستخرجُ منْهُ بواطِنه وأسرارَه، ويبني عليْها نتائجَه وأحكامَهُ، وهذه الخصَائصُ تجمعُها ملكةُ (الحكم) وتتصلُ بها ملكُ (الحكمة)، وتتصلُ كذلِك بالعقلِ الوازعِ إذا انتهتْ حكمةُ الحكيمِ بِه إلى العلمِ بِما يَحْسُنُ وما يقبُحُ، وما ينبغِي لَه أن يَطلبه، وما ينبَغِي لَه أن يأباه.

ومِنْ أعلَى خَصَائصِ العقل (العقلِ) الإنسانيّ (الرشد) وهو مقابلٌ لتمام التّكوين في العاقل الرشيد، ووظيفةُ (الرشد) فوقَ وظيفة العقل الوازع، والعقل المدرك والعقلِ الحكيمِ؛ لأنها

(٢) عضو هيئة كبار العلماء.



استيفاءٌ لجميع هذه الوظائف، وعليها مزيد من النضج والتمامِ والتميّز بميْزةِ الرَّشاد، حيثُ لا نقصَ ولا إخلالَ، وقد يؤتى الحكيمُ من نقصٍ في الإدراكِ، وقد يؤتى العقلُ الوازعُ من نقصٍ في الحكمةِ، ولكن العقلَ الرَّشيد ينجو به (الرّشاد) من هذا وذاك»[٣].

والقرآن هو الكتاب الذي هدى إلى (الرّشد):

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ (الجن: ١، ٢)

والقرآن يوجبُ أن يبلغَ اليتيم مقام الرّشد ليسلم إليه ماله، يفعل به وفيه ما يهديه إليْه رشده، فإذا لم يؤنس منه ذلك بقي تحت الوصاية، حتى يكتمل رشده.

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٦)

تبصر قوله تعالَى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟﴾ وقوله: ﴿ءَانَسْتُم﴾ وما فيهما من وجوب التحرّي والحيطة وتحقق اليقين بكمال العقل المعبر عنه بالرّشاد، ومن خلوه ممّا يعيقه عن القيام برسالتِه الإصلاحيّةِ على مستوَى صَاحبِه، وما يتعلقُ به، وعلى مستوَى مجتمعِه وأمتِه.

وعلى الرَّغم من أنَّ للعقلِ تلك المنزلة، فإنَّ لسلطانه حدودًا، فثمّ ما هو عاجزٌ عن القيامِ به من نحو التّشريع حلًا وحرمة، فذلك إلى نصٍّ من بيان الوحي قُرآنا وسنةً، وما مهمة (العقل) مع ذلك النّصّ إلا فقه ما هو مكنون فيه، واستنباطه، وقياس ما لم يصرّح به فيه عليه، أمَّا أن يتخذ بديلًا عن النَّصّ في شأنٍ مِن شئون علاقةِ العبدِ بربّه سبحانه وتعالى فذلِك لا يكونُ.

ليس (العقل) أيًّا كان قدره قسيمًا للوحي، وإنّما هو خادمُه بكلِّ ما تحمله هذه الكلمة من معان وضوابط وآدابٍ.

وهو يلهج:

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧)

﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣٢)

---

(٣) التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، نشر نهضة مصر - القاهرة الطبعة السادسة، سنة ٢٠٠٧م، ص: ٤.

«لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ».

والله ﷻ حين امتنّ بتسخيره الكون جعل ذلك آية لقوم يعقلون، ولقوم يتفكرون:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل: ١٠ – ١٢)

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ١٢، ١٣)

فكان ذلك دليلًا صريحًا على مكانةِ العقل، فبه يتحقق للمرءِ الإفادة من هذا الكونِ سواءٌ في مسيره الدنيويّ أو مصِيرِه الأخروي.

وأهل النار يوم القيامة يعترفون بأنهم لم يكونوا في دنياهم يعقلون، ولو عقلوا ما كانوا منْ أهلها:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾

(الملك: ١٠، ١١)

فدلّ هذا على عظيم مكانةِ (العقل) فبه تتحقّق (العزّة) في الدنيا لصَاحبِه الخبير لمنهاج استثمارِه وشكر خالقه والمنعم به عليه، وتحقق له السعادة في الآخرة.

وهذا يضع على كاهلِ كلّ ذِي ولايةٍ على أحدٍ بدءًا مِن الوالدين إلى ولي الأمر العام مسئولية تعليم مهارات التفكير، واستثمار (العقلِ) على الوجه الأمجد الأحمد، فتعليم (التفكير) هو رأس الأمر، بتحقيقه يتحقق كلّ جليلٍ وجميلٍ، فليت قومي يعلمون، ويعملون بما يعلمون.